توجيهات وعِبَر في ظِلال سورة العصر

2022-12-16

الحمد لله الذي منّ على عباده المؤمنين بدين يجمع كلمتَهم، ويوحِّد صفوفَهم، وأوجب عليهم أن يكونوا إخوانا للحق ناصرين، وفي سبيل إقامته، وإزالة ما يحول دون تحقيقه متعاونين. فسبحانه من إله أعزَّنا بهذا الدين، ورفع شأننا عنده في الدنيا وجعلنا في الآخرة من عباده المقربين. إن تمسّكنا بما أوصانا به، وصرنا دائماً وأبداً نَعِي أنّنا عباد الله المسلمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يُحب عباده المؤمنين أن يكونوا متخلِّقين بأخلاقه العلية. عاملين بأوامره القرآنية. متأسِّين فى كل أحوالهم بالحبيب الأكرم خير البرية. صلى الله عليه وسلّم. وأشهد أنّ سيّدنا محمداً عبدُ اللهِ ورسولُه، وصفيّه من خلقه وخليله. دليلُ السعداء، وإمامُ الصالحين والأتقياء، وبابُ النَّجاة من كلِّ هول في الدنيا، وسِرُّ السعادة يوم العرض والجزاء.

محمّد المصطفى الهادي لسنّتِهِ * مؤيَّدٌ طاهرٌ بَرٌّ بأمّتِهِ
بشرى لكمْ وتهاني أهل ملّتِهِ * إن شئتُمُ أن تكونوا في شفاعتِهِ
صلّوا عليه وزيدوا في محبّتِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. زين العشيرة والآل والصحب والأتباع. وعلى آله الأجلّة المتّفَق على محبّتهم بالإجماع. وصحابته القاطعين بحبّهم ظهور أهل الزيغ والإبتداع. صلاة تجعلنا بها من أهل النفع والإنتفاع. السالكين طريق السنّة والإتّباع. وتشفينا ببركتها من جميع العاهات والأسقام والأوجاع. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الأمّةَ الإسلاميَّةَ تُواجِهُها تحدِّيات مُتنوِّعة، تُعانِي مصائِب شتَّى، تُقاسِي مِحَنًا عُظمَى. وإنّ دينَ الإسلام الذي هو عُمدةُ عزِّنا، ومركزُ فلاحِنا، وأساسُ صلاحِنا، وأصلُ سعادتنا في

آخرتنا ودُنيانا، إنّ هذا الدينَ رَسَمَ لنا قواعدَ عظيمةً تُنظِّمُ حياتَنا، وتُصلِحُ أحوالَنا، وتحفظُ مُجتمعاتِنا، وتُوحِّدُ صفَّنا. وتُؤلِّفُ بيننا، وتنصُرُنا على أعدائِنا. ومن أساس هذه القواعِد قولُ الله جل وعلا:((وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)). أيّها المسلمون. إنّ من بلاغة القرآن وإعجازه، ومن فصاحته وإيجازه، أن يحتويَ على بعضِ السور القصيرة التي تحمل المعاني الكثيرة، وسورة العصر من السور التي تشتمل على منهجٍ كاملٍ للحياة البشرية كما يريدها الإسلام، وترسم للمسلمين الطريق الصحيح الذي ينتهي بهم إلى الربح والفوز. إن اتّبعوا هدي ربهم. وساروا على نهج نبيّهم، صلى الله عليه وسلم. ويجنّبهم العمى والضنْكَ اللذَيْن يلحقان بكل مَن أعرض عن منهج الله، قال تعالى في سورة طه:((فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)). تلكم واللهِ هي الحقيقةُ الواضحةُ التي تقرّرها هذه السورة. وتتلخّص في أنه ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، هو المنهج الذي ترسم هذه السورةُ حدودَه. وتوضّح معالمَه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسران، ولا نجاة للبشرية إلا بما جاء في تلك السورة من خصال. وهي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. يقول الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه: (لو فكَّر الناس في هذه السورة لكفتهم). أي لكفتهم واعظاً وزاجراً. وسائقاً للخير والبر بأنواعه. نعم. إنّ هذه السورة فيها أعظم زاجرٍ وأبلغ موعظة. أيّها المسلمون. إنَّ سُورَ القرآن الكريم يتعانق بعضها مع بعض. بحيث تتصّل كل سورة بما قبلها، وتنسجم مع ما بعدها، وسورة العصر تسبقها سورة التكاثر:((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)). السورة التي تبيّن أنَّ الناس اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يُلْهِيَ عن طاعة الله سبحانه وتعالى، والتي ختمها سبحانه بقوله:((ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)). وهذا السؤال سيكون يوم القيامة. فإن كان المسؤول شاكراً لأنعم الله فهو من الفائزين، وإن لم يكن

كذلك فهو من الذين أقسم الله أنهم في خُسر. أيّها المسلمون. لقد صدّر الله جلّ وعلا هذه السورة المباركة بالقسم بالعصر؛ والعصر: هو الدَّهر، هو الزمان الذي هو ميدان الأعمال ومجال الطاعات أو غيرها، والناس مع العصر والزمان بين محافظٍ ومضيّع، وحال الناس مع الزمان والعصر إمَّا في غنيمة ورِبح، وإمّا في إضاعةٍ وخسران، والله سبحانه وتعالى يقسم بالدهر لِما فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعِبر والعظات، على أنّ الإنسان في خُسْرَانٍ، لأنه يُفَضّلُ العاجلةَ على الآجلةِ، وتغلب عليه الأهواءُ والشهواتُ، ويقسم سبحانه بالزمان. لأنه رأسُ مالِ عُمْرِ الإنسان. فكل لحظة تمضي فإنها من عمره ونقصٌ من أجله، كما قال القائل:

إنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيامِ نَقْطَعُها وَكُلُّ يَومٍ مَضَى نَقَصٌ مِنَ الأَجَلِ

أيّها المسلمون. والخسران الذي يُقْسِم عليه رَبُنا ليس الخسرانَ في الدنيا بفقد مالٍ، أو بموتِ ولد، أو بفوات حَظٍ من الشهوات، ولكنه الخسران الذي يَلْحَقُ بالإنسان في الآخرة بسبب عبادته لغير الله، فذلك هو الخسران المبين ، قال تعالى في سورة الزمر:((قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)). أو الخسران المبين الذي يلحق بالذي إن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابه شر انقلب على وجهه، وفي هذا الصنف يقول الله تعالى في سورة الحج:((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)). أو الخسران الذي ينزل بمن انشغل بماله وولده عن الصلاة والطاعة والذكر. كما جاء في قوله تعالى في سورة المنافقون:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)). أيّها المسلمون. وطريق النجاة من هذا الخسران يتمثّل في خصال أربع. هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. قال تعالى بعد أن أقسم أنّ

الإنسان في خُسر. قال:((إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)). أما الإيمان بالله فلأنه أصلُ الحياة الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلّق به كل ثمرة من ثماره، كما أنه المنهج الذي يجعل الحياة تسير في نظام وتناسق وتعاون في طريق مستقيم. وفي حركة واحدة. لها دافع معلوم. وهدف مرسوم. والأعمال التي لا تنبع من جوهر الإيمان ما هي إلا رماد لا ينفع صاحبَه، وسراب يخدع فاعلَه. وصدق الله حيث يقول في سورة إبراهيم:((مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ)). ويقول سبحانه وتعالى في سورة النور:((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)). أيّها المسلمون. أرأيتم كيف أنَّ الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة يجعلان المسلم يعيش في أمن وأمان، وسكينة واستقرار؟ وكيف لا! وهو يعتقد أنّ للكون كُلِّهِ. بسمائه وأرضه. وإنسه وجنِّه. إلهاً واحدا خالقاً رازقاً. يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وصدق الله حيث يقول في سورة الرعد:((الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)). وإذا اطمأنّ قلبُ المؤمن قويَ إيمانُه. وتحقّق أمانُه، أمّا إذا لم يطمئنّ القلب فقد ضعف الإيمان. وضاع الأمان. قال الشاعر:

إِذَا الإِيمَانُ ضَاعَ فَلاَ أَمانٌ * وَلاَ دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحيِ دِينَا
وَمَنْ رَضِيَ الحَيَاةَ بِغيْرِ دِينٍ * فَقَدْ جَعَلَ الفَنَاءَ لَهَا قَرِينَا

وأمّا العملُ الصالحُ فهو من أعظم القيم. ومن أشرف الصفات التي يقوم عليها المجتمع الصالح. الذي يهدُف الإسلام إلى تحقيقه، سواء كانت صيغتُه دينيةً كالصلاة، والصيام، والحج، والعمرة، والذكر، والتلاوة، والدعاء، أم دنيوية، كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض بالزراعة

والصناعة، والإحتراف، وكل ما فيه منفعة للناس، وإحسان إليهم. فالعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، ومفهومه عامٌّ يشمل كلّ فعل محمود، ويخرج منه كلّ فعل مذموم، كما أنه يحتوي على كلِّ أنواعِ البر والخير، وقد جعل الله فِعل الخيرات من أسباب الفلاح مع الصلاة والعبادة والجهاد. قال الله تعالى في سورة الحج:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)). وحقيقة هؤلاء المؤمنين الذين يفعلون الخيرات، أنهم أناس باعوا الفانيَ الخسيسَ، واشتَرُوا الباقيَ النفيسَ. فيا لها من صفقةٍ ما أربحها! ومنقبةٍ جامعةٍ للخير ما أوضحها! إنها التجارة الرابحة التي غفل عنها أكثر الخلق. التعامل فيها مع رب العالمين، ورأس المال لها هو العمر، والبضاعة هي الطاعة، والربح هو المغفرة والجنّة في الآخرة ، قال تعالى في سورة فاطر:((إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)). أيّها المسلمون. وقد وعد الله هؤلاء المؤمنين بالحياة الطيّبة في الدنيا. وبالجزاء الأوفى يوم القيامة، قال عز من قائل في سورة النحل:((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)). كما وعدهم بالأمن من المخاوف. والنجاة من الأحزان. قال الله تعالى في سورة البقرة:((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)). فمَن ضيّع هذه التجارة، فقد ضَيَّعَ نفسَه، وخَسِرَ كُلَّ رأسِ مالِه، وفاتَهُ خيرُ الآخرةِ والأولى، وليس له منها نصيب ولا سهم! على نفسِهِ فليبك من ضاع عمره. وصدق الله تعالى إذ يقول في سورة الزمر:((قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)). كما أنّ هؤلاء المؤمنين هم محور الخير في الدنيا، وأهل الفضل في الآخرة، قال الله تعالى في سورة البيّنة:((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)). أيها

المسلمون. وأمّا التواصي بالحق والتواصي بالصبر. فهما دعامتان من دعائِمِ تثبيت الإيمان في المجتمع. وتقوية الأواصر والروابط بين حملة الحق، وتحقيق التعاون فيما بينهم على البر والتقوى، ونشْر الخير والحق الذي لا يمكن أن تستقرّ أقدام أصحابه استقرارا تامّا إلاَّ مع التّواصي به، فإنه من لم يتواص بالحقّ قَلَّ أن يصبر في طريق الحقّ، بناءً على أنّ رأس الأعمال الصَّالحة هو الأمرُ بالمعروف والنّهيُ عن المنكر، فمع أنّ التواصيَ بالصبر، بعضُ الحقِّ الذي يتواصَى به المؤمنون العاملون. إلا أنّ الله تعالى أفرده بالذكر لأهمّيته وعظيم قدره، ولمّا كان التّواصي بالحق يُوغرُ صدور أهل الزور. وأصحاب الكذب والفجور. ويُشعل نار الحقد في قلوبهم على أهل الحق. فقد أتْبَعَ اللهُ تعالى التواصيَ بالحق بالتواصِي بالصبر. قال تعالى:((وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)). لأنّ الصبر أساس النجاح في الدنيا. وسبب السعادة في الآخرة. وهو خَصْلَةٌ عظيمة أَكْرَمَ الله بها أُولى العزم من رسله، وأمَرَ بها نبيّهُ الخاتم. صلى الله عليه وسلم. فقال له في سورة الأحقاف:((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)). والصابرون يثابون على صبرهم بغير حساب. قال تعالى في سورة الزمر:((إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)). ومن لم يَتَدَرَّع بالصبرِ قَلَّ أن يثبت في مقام الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ويؤكّد هذا ما جاء في وصايا لقمان لابنه :((يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور)). أيها المسلمون. هذه هي سورة العصر. قليلة الكلمات. غزيرة الثمرات. التي اتّخذها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شعاراً لهم قبل افتراقهم. حيث كانوا يُنْهُونَ بها لقاءاتهم التي لم تكن إلا على خير، فعن عبيد الله بن حصين قال:((كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخَر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلّم أحدهما على الآخر)). وبهذا نعلم أنّ هذه السورة الوجيزة البليغة اشتملت على قواعد الإيمان. وأصول الدّين. وشرائع الإسلام.

والوصايا العظيمة المرضية. ألا ما أحرانا أن نُعنى بهذه السورة تفكّراً وتدبّراً. لتكون لنا إماماً في السّير في طاعة الله. وفراراً من الخسران والعواقب. وإنا لنسأل الله جلّ وعزّ أن يعيننا على طاعته. وأن لا يجعلنا من الخاسرين، وأن يجعلنا بمنّه وكرمه من أهل الإيمان والأعمال الصالحات. من المتواصين بالحقّ. ومن المتواصين بالصبر. اللهم وفّقنا أجمعين لعمل الخيرات، والمحافظة على الطاعات، واستباق النوافل والقربات، واجعلنا ممّن تتوفّاهم مسلمين. وتُلحقهم بالصالحين. اللهم سدِّد خطانا، ووفّقنا لسلوك طريق الخير والبر والفضيلة، الذي ارتضيته لنا بقولك:((ورضيتُ لكم الإسلام دينا)). بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ

.